

تاريخ جمها نكشاي لعطا ملك الجويني

بعتلم

الدكتور احمد محمود الساداني

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة القاهرة

بغداد حاضرة الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسي نفسه ، ثم أشاعوا الخراب الشامل في تلك المدينة التي كانت تضم أعظم تراث للمسلمين ، ذلك التراث الذي قام الخلفاء على جمعه قرونا طويلة جيلا بعد جيل . ولولا دفع المصريين لهؤلاء الأجلاف الخربين عند عين جالوت لضاعت كل معالم الحضارة الإسلامية ، في الغالب ، وقضى على ملايين عديدة جديدة من أهل البلاد الإسلامية .

ولقد أنزل المغول الخراب بعديد من المدن الإسلامية والأمصار وانهبوا ، وقتلوا مئات الألوف من سكانها ، كما هدموا أغلب مراكز الثقافة الإسلامية بعد أن ذبحوا علماءها ذبح الشاة أو ساقوهم في ركابهم هم وأرباب الحرف والفنون الذين بعثوا بفريق كبير منهم إلى بلادهم ليقوموا على تعمیرها .

على أن هؤلاء الخربين باختلاطهم بالمسلمين وبدخولهم في الإسلام فيما بعد ، ما لبثوا أن انقلبوا بفعل الثقافة الإسلامية يساهمون في بناء الحضارة والمدنية فأتيج بذلك لبعض مراكز الثقافة الإسلامية أن تستعيد ماضيها القديم من جديد ، حتى صدر عنها في القرن الثامن الهجري بايران جملة من الكتب المهمة في مختلف

منذ فجر الإسلام حتى اليوم لم تتعرض البلاد الإسلامية لهزة عنيفة مدمرة كتلك التي أنزلها بها الغزو المغولي مستهل القرن السابع الهجري .

ذلك أن جموع المغول الهمج بعد أن استولت على الصين ، استدار بها زعيمها الخان الأعظم جنكيز نحو الغرب فطفقت تشيع الخراب والدمار في أراضيه ومدائه بصورة لم يشهدها العالم على أيدي أحد من طغاة الغزاة ممن سبقوهم .

فقد اجتاحت جنكيز خان أول الأمر بحشوده الكثيفة بلاد ما وراء النهر وخراسان وأجزاء من البنجاب وإيران ، لينطلق من بعد ذلك فريق من أبنائه مع قواتهم فيتوغلون في جنوب روسيا وينفذون إلى المجر وبولندا حتى فر من أمامهم فرسان أوروبا وأبطالها وفيهم التوتونيون محاربو بروسيا المشهورون . ولولا أن اضطر أمراء المغول هؤلاء للعودة إلى بلادهم بسبب حوادث الوراثة ما كانوا ليرجعوا عن أوروبا كلها حتى يفعلوا بها ما فعلوه بغيرها من الأقطار .

وفي الدور الثاني من أدوار هذا الغزو ، دخلت جموع المغول - يقودها هولاكو حفيد جنكيز -

فنون المعرفة سارع الأوروبيون بنقلها إلى اللاتينية فجر عصر النهضة .

وفي عهد الإيلخانيين وبرعايتهم - وهم أحفاد جنكيز وأبناء هولاكو الذين كانوا يحكمون بإيران في ذلك القرن - ظهرت طائفة من المؤرخين تعد كتبهم التي صنفوها بالفارسية من بين أحسن وأضبط ما كتب في التاريخ الإسلامي حتى اليوم .

ومن بين هؤلاء المؤرخين يشتهر علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب كتاب جهانكشاي ، ثم رشيد الدين فضل الله صاحب كتاب جامع التواريخ وعبد الله ابن فضل الله الشيرازي وصاف الحضرة صاحب كتاب تجزية الأمصار وتزجية الآثار الذي يشتهر كذلك باسم تاريخ وصاف نسبة إلى صاحبه . وهذه المراجع الثلاثة كتبها أصحابها بالفارسية .

ويعد كتاب جهانكشاي للجويني - موضوع مقالنا هذا - أهم هذه المراجع جميعاً . فهو أوفى ثبت كتب عن دور يعد من أخطر الأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي ، حين انطلق المغول - بعد ظهورهم المفاجئ على مسرح التاريخ في القرن السابع الهجري - يفتحون بلاد المسلمين وما وراءها وينشرون الدمار والحرب فيها .

وقد عاصر الجويني نفسه جانباً من تلك الأحداث وشارك فيها ودونها في كتابه .

ولا يعد كتابه أول ما كتب عن المغول فحسب ، بل لقد رجع إليه كذلك كل من عاصره أو جاء من بعده ممن تصدوا للكتابة عنهم .

مؤلف الكتاب

تقول بعض المصادر أن آل الجويني في الأصل عرب خلص ، جدهم كيسان المكنى بأبي فروه وكان مولى ثالث الخلفاء الراشدين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه . كما ينسبهم كذلك بعض الكتاب إلى إمام

الحرمين عبد الملك الجويني ، ومن قال بذلك القاضي نور الله الشستري في مجالس المؤمنين .

ومن أسلاف الجويني كذلك من شغل المناصب الرفيعة عند العباسيين وفيهم الربيع وابنه الفضل ممن تقلدوا الحجابة والوزارة منذ أيام المنصور حتى عهد المأمون .

والثابت المعروف أن آل الجويني قد شغلوا كذلك كثيراً من المناصب الهامة عند السلاجقة وعند سلاطين خوارزم ومنها وظيفة المستوفي « صاحبديوان » ، وقد ظل هذا اللقب يعرف به كثيرون من رجال هذه الأسرة برغم اختلاف المناصب التي كانوا يشغلونها .

وكان من أجداد عطا ملك ، مؤرخنا هذا ، منتخب الدين بديع الكاتب الجويني صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان سنجر السلجوقي ، ويذكره محمد عوفي صاحب لباب الألباب (أول ٧٨ - ٨٠) ويثبت له ما ألف من كتب ورسائل .

أما جد عطا ملك المباشر ، وهو شمس الدين محمد ابن محمد بن علي ، فكان من خاصة السلطان علاء الدين محمد شاه خوارزم ومستوفيه . وقد صحبه حين هرب من وجه المغول من بلخ إلى نيسابور عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ، وخدم من بعده ابنه جلال الدين منكوبردى .

أما بهاء الدين محمد بن محمد صاحبديوان ، والد مؤرخنا ، فقد قضى أغلب حياته في خدمة حكام المغول الذين كان يعهد إليهم من مغولستان بحكومة البلاد الإسلامية وذلك في الفترة ما بين غزو جنكيز خان وحرب هولاكو المشهورة . وفي عهد جنتمور حاكم خراسان المغولي صار مستوفياً لخراسان ومازندران . وفي عام ٦٣٣ هـ أوفده جنتمور برسالة منه إلى الخان الأكبر أوكتاى حيث لقي عنده كل ترحيب وإكرام .

كذلك كان بهاء الدين هذا كثيراً ما ينوب عن هؤلاء الأمراء المغول في الحكم حين كانوا يقصدون إلى مقر الخان الأعظم ، ومن ذلك نيابته عن الأمير أرغون على آذربيجان وبلاد الكرج وآسيا الصغرى .

ووافاه أجله بأصفهان . وتشير جملة من المصادر إلى فضله وتفوقه في النظم بالفارسية والعربية .

* * *

ولد علاء الدين عطا ملك الجويني عام ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) وما أن بلغ العشرين من عمره حتى التحق بخدمة الأمير أرغون المغولي . (وهو غير اليلخاني أرغون حفيد هولاكو) . وكان هذا الأمير ، قبل قدوم هولاكو خان في زحفه المشهور إلى فارس ، يحكم باسم الخان الأعظم في خراسان ومازندران والعراق (العجمي) وكرمان وآذربيجان والموصل وحلب . وصحب عطا ملك هذا الأمير عدة مرات في رحلاته إلى قراقورم مقر الخان الأعظم .

وزيارات الجويني المتكررة هذه لمقر الخان الأعظم هي التي أوحى إليه بتأليف تاريخه الكبير «جهانكشاي» الذي سجل فيه تاريخ المغول وفتوحاتهم ورسومهم . . . أشار على بعض الخلال الأوفياء وإخوان الصفاء أن أقوم بكتابة تاريخ يخلد مآثر الأمير وأقيد فيه آثاره وأجمع فيه أخباره بما ينسخ آيات القياصرة ويمحو روايات الأكاسرة . . .»

وكان مما شجعه على تصنيف كتابه هذا ، فضلاً عن اطلاعه على الكثير من حياة المغول وأحوالهم ، ما كان عليه هو نفسه من الكفاية والمقدرة وما تيسر له بحكم منصبه من الاطلاع الواسع على نظم الحكم عند المغول وسير الأمور في دولتهم ، وهو الذي طوف ببلادهم سنين عشره ورحل مرات متكررة إلى بلاد ما وراء النهر وتركستان ومواطن الأويغور ومغولستان حتى بلغ أقصى الصين ، ورأى كثيراً من الوقائع

المهمة ، حتى استمع كذلك من أفواه الثقات من المغول إلى كثير من تفاصيل تاريخهم بما كان له من المكانة العالية عند حكامهم واختلاطه بأشرافهم وعظماهم .

وقد بدأ عطا ملك تصنيف كتابه هذا عام ٦٥٠ هـ وفرغ منه عام ٦٥٨ هـ .

وحين قدم هولاكو في زحفه المشهور إلى إيران ، سير الأمير أرغون ابنه الأمير كراي ملك والأمير أحمد بتكجي ومعهما عطا ملك الجويني إلى الغازي المغولي فالتحقوا بخدمته . وظل عطا ملك في خدمة هولاكو وأولاده منذ ذلك الوقت حتى آخر أيام حياته .

وحاول بعض الوشاة أن يوقع به عند هولاكو ولكنهم فشلوا في ذلك لما كان يكتنه له العاهل المغولي من التقدير والتوقير .

وبما كان لعطا ملك من الخطوة عند هولاكو استطاع أن يحمله على أن يأمر بتعمير مدينة خبوشان (قوجان) وهو في طريقه إلى منازل الاسماعيليه ، وكانت هذه المدينة قد نزل بها الدمار الشامل إبان الغزو المغولي وهجرها أهلها .

وصحب عطا ملك هولاكو في حربه للاسماعيلية ، وحمل بنفسه شروط التسليم التي يرتضيها الغازي المغولي إلى ركن الدين خورشاه آخر أمراءهم الكبار في الموت .

وعمل مؤرخنا على إنقاذ جزء كبير من كتب الاسماعيليه ، فدخل بأمر هولاكو إلى قلعتهم بعد استسلامهم وأخذ يتفحص ما تجمع لديهم من أمهات الكتب والعدد منذ أيام زعيمهم حسن الصباح ، أي لمائة وسبعين عام خلت ، فأخذ ما وجده يصلح له من آلات الفلك والأسفار ، وأحرق ما بقي بعد ذلك وفيها كتب معتقداتهم .

ومن بين ما احتفظ به كتاب « سر كذبت ميدنا » في سيرة الصباح ، وقد ضمن المجلد الثالث من تاريخه خلاصة لهذا الكتاب . كذلك أورد رشيد الدين فضل الله ملخصاً آخر أكثر اسهاباً لسيرة الصباح هذه في الجزء الثاني من كتابه جامع التواريخ . ولهذين الخلاصتين قيمة كبيرة بما يحتويانه من معلومات قيمة لا توجد في مصادر أخرى .

وما إن قضى هولاء على الاسماعيليين وخرب قلاعهم عام ٦٥٥ هـ حتى زحف إلى بغداد وفي صحبته جملة من أعيان المسلمين وعلمائهم ومن بينهم نصير الدين الطوسي وعلاء الدين عطا ملك الجويني .

وفي عام ٦٥٧ هـ ، أي بعد مرور عام على تخريب بغداد وقتل الخليفة المستعصم العباسي بها ، عهد هولاء بحكومة هذه المدينة إلى عطا ملك كما عهد بالوزارة إلى أخيه شمس الدين محمد الجويني .

وجهد عطا ملك ، في عهد هولاء ، في عهد ابنه أبا ، في تميم كثير من الأراضي الزراعية بالعراق وحرص على تخفيف الخراج عن كاهل الفلاحين ما وسعه ذلك ، وأقام بالنجف رباطاً لطلاب العلم والفقهاء .

وبحسن تدبيره تضاعف دخل العراق وعمرت قراه واستردت بغداد رونقها إلى درجة قاربت ما كانت عليه من قبل . وفي هذا يقول الذهبي في كتابه « تاريخ الإسلام » : « كان علاء الدين وأخوه فيهما كرم وسؤدد وخبرة بالأمور ، وفيهما عدل ورفق بالرعية وعمارة بالبلاد . ولى علاء الدين نظر العراق سنة نيف وستين بعد العباد القزويني فأخذ في عمارة القرى وأسقط عن الفلاحين مغارم كثيرة إلى أن تضاعف دخل العراق وعمر سوادها ، وحفر نهراً من الفرات مبدؤه الأنبار ومنتهاه إلى مشهد على رضى الله عنه ، وأنشأ عليه مائة وخمسين قرية ، ولقد بالغ ،

بعض الناس وقال : عمر صاحب الديوان بغداد حتى كانت أجود من أيام الخلافة ، ووجد أهل بغداد به راحة » . وقد تابع الذهبي في ذلك كثير من المؤرخين . وظل عطا ملك يحكم بغداد لأربعة وعشرين عاماً ، منها ستة في عهد هولاء وسبعة عشر أيام ابنه أبا ، وعام واحد من حفيده السلطان أحمد تكودري .

وتعرض عطا ملك لكثير من الدسائس التي دبرها له بعض الذين كانوا ينفسون عليه مكانته عند حكام المغول وعلى رأسهم مجد الملك يزدى وزير أتابكة يزدى السابق . فلم يهتموه بالاستيلاء على الكثير من أموال الدولة فحسب ، بل وقالوا كذلك باتصاله بالممالك المصرية في حربهم مع الابلخانيين من أبناء هولاء حكام إيران ، وأنه كان يمهّد لدخولهم بغداد نفسها . على أن براءته كانت تتضح في كل مرة .

وفي عهد السلطان أحمد تكودري ، الذي خلف أخاه أبا على عرش إيران ، ولى علاء الدين عطا ملك حكومة بغداد من جديد ، وكان قد أقصى عنها بعض الوقت بوشاية من مجد الملك وعصابته الذين أنزل بهم السلطان الجديد عقابه وصادر أموالهم . كذلك عهد إلى أخيه شمس الدين وابنه هارون بحكومات بعض الولايات الأخرى .

ولم يطل الأجل من بعد ذلك بعلاء الدين إلا شهوراً قليلة ، فمات في الرابع من ذى الحجة من عام ٦٨١ هـ (١٢٨٣ م) ودفن بتهريز

وكان لآل الجويني عند المغول من النفوذ ما يشبه ما كان للبرامكة عند العباسيين .

وعلى رواية الذهبي ، فقد كانوا مقصد الكتاب والعلماء ، وكانوا يصلونهم بالجوائز السنوية التي قد تصل إلى ألف دينار في المرة الواحدة .

وألف باسمهم كذلك جملة من العلماء ومنهم نصير الدين الطوسي الفلكي المشهور والقاضي نظام الدين

الاصفهانى وابن صيقل الجزرى . كما أشاد بهم كذلك كبار شعراء الفرس وفيهم همام الدين التبريزى وسعدى الشيرازى .

* * *

مؤلفات عطا ملك الجوينى

كتب الجوينى ، إلى جانب تاريخه الكبير ، رسالتين أواخر أيامه تعرف أحدهما باسم « تسليية الإخوان » ضمنها ما مر به من حوادث وما تعرض له من محن ، وقد حررها عام ٦٨٠ هـ . أما الرسالة الثانية فقد أنشأها فى العام التالى ، أى عام ٦٨١ هـ ، وهو العام الذى توفى فى آخره ، وهى لا عنوان لها ، وتعد ذيلًا للرسالة الأولى . وقد أفاد من مادة هاتين الرسالتين كل من كتب عن الجوينى ممن جاء من بعده من المؤرخين . وفى « تسليية الإخوان » يفصل الجوينى ما تعرض له من المصائب والحن بسعاية مجد الملك يزدى وعصبته زوراً وبهتاناً مرات متكررة . ومن ذلك اتهامهم له بالاستيلاء على خراج بغداد كله سنين طويلة وحبسه تلك الأموال عن بيت مال السلطان الابلخانى المغولى . وقدروا ذلك المال المستولى عليه فى دعواهم هذه بمليونين من الدنانير استحوذ عليها فى مدى عشر سنوات هى التى ولى فيها حكومة بغداد . ومنها كذلك تأمره على سلامة الدولة باتصاله بالمليك المصرين أعدائها . وكان يتعرض لكثير من المتاعب ، ومنها الحبس ، فى كل مرة حتى تثبت براءته ، فيزيد السلطان عندئذ فى تشريفه له ويصله .

ويتحدث الجوينى فى رسالته الثانية عن قدوم شاعر الفرس الكبير سعدى الشيرازى إلى تبريز لتحيته وأخيه شمس الدين وكان لها عليه آياد كثيرة . وما لقيه هذا الشاعر من حفاوة بالغة وترحيب لفت نظر السلطان أباقا نفسه ، فاستفسر عن شأن ذلك الغريب

الذى يحيطه القوم بالتبجيل والتوقير مع ما هو عليه نفسه من بساطة الحال ، ثم سأله أن يعظه .

وفى هذه الرسالة أيضاً يتحدث الجوينى كذلك عن مقتل خصمه مجد الدين يزدى وعن ولاية السلطان أحمد تكودرى ، وهو ابن هولاكو ، وأول حاكم مسلم من المغول الابلخانيين بایران .

ولم بجانب هاتين الرسالتين فقد أنشأ علاء الدين الجوينى كذلك بعض رسائل وأوامر سلطانية وجدت ضمن مجموعة من رسائل منتخب الدين بديع الكاتب الجوينى ، وهو خال جد والده ، وتقع هذه المنشآت فى خمس عشرة ورقة .

كتاب تاريخ جهانكشای

لم يسبق كاتب ولا مؤرخ علاء الدين عطا ملك ابن بهاء الدين محمد بن محمد الجوينى إلى معالجة تلك الموضوعات ذات الأهمية البالغة التى عالجها فى كتابه هذا وهى : تاريخ المغول وتاريخ سلاطين خوارزم وتاريخ الاسماعيليه . وكان مما يسر له إخراج كتابه هذا تيسيراً كبيراً أنه كان هو نفسه من بين أعظم عمال الدولة المغولية (الابلخانية) ، وقد جاب بلاد المغول طولا وعرضاً وخالط أعيانهم وشهد كثيراً من وقائعهم وشارك فيها ، كما اطلع بنفسه على كتب الاسماعيليه فى الموت بعد أن أذن له هولاكو بذلك ، فكانت هى مصادره ومراجعته الأصلية فى كتاباته عنهم .

ومن هنا صار كتابه هو المصدر الأول الذى رجع إليه كل من جاء من بعده من المؤرخين ممن تصدوا للكتابة عن تلك الحقبة التى عالجها فى كتابه .

فهذا هو عبدالله بن فضل الله الشيرازى صاحب تاريخ وصاف الذى ألفه فيما بين عامى ٦٩٩ و ٧٢٨ هـ يضمن المجلد الرابع من كتابه مختصراً كاملاً لكتاب الجوينى هذا بأجزائه الثلاثة ويصرح بأن كتابه ما هو

إلا ذيل لتاريخ جهانكشای وتكملة لحوادثه ، ويقر له بالفضل ويمدحه :

وما أنا إلا قطرة من سحابة

ولو أننى صفت ألف كتاب

وكذلك يفعل رشيد الدين فضل الله وزير غازان والجايو ، فيطوى كتابه الكبير « جامع التواريخ » الذى أتمه عام ٧١٠ هـ على محتويات كتاب جهانكشای كله ويذكر عنه بطريق التلخيص أنا وبطريق البسط والإشباع أنا آخر .

وعلى هذا النهج وقريب منه فعل أبو الفرج غريغورس بن أهرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى المتوفى عام ٦٨٥ هـ فى تاريخه مختصر الدول ، ما كتبه منه بالسريانية أو بالعربية .

ثم ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى فى كتابه الفخرى فى الأخبار السلطانية الذى ألفه عام ٧٠١ هـ ، وشهاب الدين أحمد بن يحيى الكاتب الدمشقى المتوفى عام ٧٤٩ هـ صاحب كتابه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ذى العشرين مجلداً ، وما جاء من بعد ذلك من التواريخ مثل تاريخ كزیده لحمد الله المستوفى وروضة الصفا لميرخوند وحبيب السير لخواندمير وما تلاها ، ما كتب بالفارسية منها أو العربية .

* * *

وصف الكتاب

يقع كتاب تاريخ جهانكشای فى ثلاثة مجلدات :

الأول : در تاريخ جنكيز خان وأعقاب أوتاكيوك خان . أى فى تاريخ جنكيز وأعقابه حتى كيوك ، ويقع فى ٢٣٢ صفحة من الحجم الكبير عدا الحواشى والفهارس ، وطبع فى ليدن بهولندا عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) .

والثانى : در تاريخ خوارزمشاهيان ، أى فى تاريخ سلاطين خوارزم ويقع فى ٢٨٢ من الحجم الكبير عدا الحواشى والفهارس ، وطبع فى ليدن عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٦ م) .

والثالث : در تاريخ منكوقا آن وهولاكو واسماعيليه . ويقع فى ٢٩٢ صفحة وطبع فى ليدن عام ١٣٥٥ هـ (١٩٣٧ م) .

والكتاب بأجزائه الثلاثة هو من منشورات سلسلة جب التذكارية المشهورة . وقام على تحقيقه العلامة الإيرانى الكبير المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزوينى وقد عمره بالحواشى المطولة والتحقيقات الدقيقة والفهارس المفصلة . وكان عماده فى ذلك مخطوطاً يرجع تاريخه إلى عام ٦٨٩ هـ قابله على إحدى عشرة نسخة أخرى .

ويشمل الجزء الأول ، بعد ديباجة طويلة ، على فصل فى عادات المغول ورسومهم ، ثم فصل فى القوانين التى وضعها جنكيز خان وهى التى تعرف باسم الياسا الجنكيزية . وأصلها دزاصاق ، ذكرها الفرس والعرب « ياسا » و « ياصا » ترخيا . وهى مزيج من القوانين الموضوعية على إرادة جنكيز وأنفع العادات القبلية . وقد دونها له الأويغور الترك ، وهم الذين قاموا على دواوينه واضطلعوا بتأديب أولاده . وهى تنظم كافة شئون الدول والجيش والأفراد . وقد ألزم تيمورلنك وأولاده ، بعد المغول ، بدورهم تشريعات الياسا كذلك ، إذ كانت لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية فى الغالب . ثم يشرع المؤلف من بعد ذلك فى الحديث عن جنكيز خان وخروجه من بلاده غازياً وفتوحاته فى ممالك الأيغور ، ويفصل فى تاريخ تاريخ الأمم الأويغورية وعاداتهم ورسومهم ، وهو فصل له أهمية تاريخية كبيرة .

وهؤلاء الأويغور ، وهم أرقى قبائل الترك كانت لهم دولة قوية بأواسط آسيا فى القرن الثامن الميلادى ،

وكانوا هم أصحاب بلاد ما وراء النهر حين دخلها العرب عليهم أواخر القرن الأول الهجري . وعندهم عرف العرب صناعة الورق في سمرقند تلك الصناعة التي انتشرت على أيديهم وبفضلهم في أقطار العالم القديم .

وأقام الأويغور ، بعد إسلامهم ، دولة قوية لهم على أنقاض الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وتركستان عرفت باسم دولة القره خانيين أو الایلکخانيين . وقد انقاد الأويغور الشرقيون بزعامة أميرهم ليدى قوت إلى جنكيز فور ظهوره بأراضيهم في حين قاومه الغربيون منهم .

ويذكر المؤلف من بعد ذلك ، في تفصيل ، فتوحات جنكيز في بلاد ما وراء النهر وإيران وما عانتها تلك البلاد على يديه من تقتيل وتخريب ونهب ، كما يتحدث عن إخضاعه لبلاد خوارزم ، وسائر الحروب الأخرى التي ظل هذا الطاغية يمارسها حتى وافاه أجله .

ويعرض علينا المؤلف خلال حديثه هذا صفحات من البطولة والبسالة أصحابها من خيرة قواد المسلمين الذين استطاعوا أن ينزلوا بجيودهم الفردية خسائر شديدة بالمغول قبل أن يستسلموا لهم أو يفروا من أمامهم .

ويختم المؤرخ حديثه عن جنكيز بذكر مطاردته للسلطان جلال الدين منكوبردى شاه خوارزم وما أظهره هذا السلطان من ضروب الشجاعة الخارقة حين حاصره المغول بمفرده في مكان ضيق بشاطئ السند . ويقتل من تحته فرسان فيثب على ثالث يقفز به في الماء من علو شاهق ويبلغ الشاطئ الآخر من النهر في سلام . وحين أراد المغول أن ينطلقوا من ورائه منعهم من ذلك جنكيز بنفسه لفرط إعجابه ببطولة خصمه وشدة جلده حتى التفت إلى أولاده وقال لهم مشيراً إلى منكوبردى : « إن هذا الولد جدير بأبيه » .

ويتحدث الجويني من بعد ذلك عن تاريخ سلطنة أوكتاي بن جنكيز وعن كيوك خان وحكمه ، ويختم هذا الجزء بفصلين مختصرين عن تاريخ توشي خان (جوجي ، جييجي) وجغتاي خان ولدى جنكيز خان .

والجزء الثاني ويضم ٣٣ فصلاً يخلو من مقدمة ، وأغلبه في تاريخ سلاطين خوارزم وأخبارهم ووقائعهم . ومؤسس هذه الدولة هو نوشتكين غرجه ، وكان على ما يذكره الجويني ، غلاماً تركياً اشتراه السلاجقة فبلغ بكفايته عندهم ما بلغه سبكتكين عند السامانيين . وعهد إليه ملكشاه بحكومة خوارزم . وكان ابنه قطب الدين هو أول من اتخذ لنفسه لقب شاه خوارزم حين أخذ نجم السلاجقة في الأفول .

وعمل أنسر بن قطب الدين على التحرر التام من سلطان السلاجقة فاشتبك معهم في حروب متكررة مكنت منهما عدواً ثالثاً مشتركاً هم كفار الترك - الذين يعرفون باسم ملوك قره ختاي أو الكر خانية - فتخطفوا كثيراً من أراضي الدولة السلجوقية وألحقوا بهما معاً هزائم متصلة .

ودولة الكر خانيين هؤلاء عمرت خمسة وتسعين عاماً (٥١٢ - ٦٠٧ هـ) في أجزاء من بلاد النهر وتركستان الشرقية من جيحون إلى كاشغروختن وبلا ساغون .

ويستطرد الجويني هنا في حديثه عن هذه القبائل فيشير إلى ملوك الطوائف من مسلمي الترك الذين كانوا يحكمون في تلك النواحي ممن ظهرُوا على أنقاض الدولة السامانية وظلوا يمارسون سلطانتهم حتى قدوم المغول . ومن هؤلاء : الأفراسيابية أو الخانية والایلکخانية وآل خاقان ، على اختلاف تعبير المؤرخين في ذلك ، وكانوا يحكمون كذلك في أقسام من تركستان وأجزاء من بلاد النهر ، وانتهى أمرهم بالخضوع للكر خانيين .

وبرغم أن تيكش شاه خوارزم وحفيد أنسر استطاع أن يقيم له دولة لا تقل في اتساعها عن بلاد السلاجقة

إلا أنه لم ينجح في دفع خطر كُرخان القره ختائي عنه فصالحه على جزية سنوية يدفعها له . وقد نصح أولاده من بعده أن يتجنبوا كل نزاع مع كرخان هذا وأن ينظروا إليه « كتراس قوى يقف في وجه عدو جبار » (ويقصد بذلك المغول) حتى قيام الساحة . إلا أنهم لم يأخذوا بهذه النصيحة فنتج عن حروبهم معه ومع خليفته كوجلوخ خان أن تمزقت تلك الجهة القوية التي كانت كفيلة بتعويق الزحف المغولي فيما بعد لسنين طويلة .

كذلك يتحدث الجويني في هذا الجزء عن حروب السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه — وتذكره بعض المصادر باسم قطب الدين كذلك — مع سلاطين الغور أصحاب غزنه . وكان زعيمهم شهاب الدين محمد الغوري ، بعد أن توغل في شمال الهند وأرسخ أقدام الحكومة الإسلامية هناك ، قد طمع في أراضي جاره الخوارزمي لكنه رد على أعقابها في عنف بالغ .

وفي هذا الفصل يذكر الجويني خلفاء السلطان الغوري بالهند من قواده ومواليه ، وهم الذين تعرف دولتهم في التاريخ باسم دولة المماليك ، وكانوا يحكمون في زمن متقارب مع دولة المماليك المصريين . وكان من بين سلاطينهم أميرة حازمة قوية هي السلطانة رضية التي عاصرت شجرة الدر المصرية .

كذلك يفرد الجويني في هذا فصلاً عن خلاف سلاطين خوارزم مع خلفاء بغداد العباسيين ذلك الخلاف الذي بدأ بالنزاع بينهما على العراق العجمي . وبلغ العداء بينهما ذروته حين دخل السلطان الخوارزمي غزنه ، بعد هزيمة للسلطان الغوري ، فوجد في وثائقه ما يثبت تحريض الخليفة الناصر لدين الله أحمد العباسي له على قتاله — كما حرص عليه القره ختاي كذلك من قبل — فثارت ثائرتة لذلك وأعلن خلع الخليفة العباسي وتنصيب العالم علاء الدين الترمذي مكانه ، ثم زحف إلى بغداد ليقبضه بنفسه هناك لولا أن عوقته ثلوج الشتاء تلك السنة وظهور المغول عند حدوده من بعد ذلك .

وفي فصل آخذ يتحدث الجويني عن جلال الدين منكوب بردي آخر سلاطين خوارزم ، وكان قد ذكر ، في الجزء الأول ، حربه مع جنكيز بالتفصيل ، تلك الحرب التي انتهت بفراره إلى المناطق الشمالية الغربية من الهند . ولم يكن من الطبيعي أن يرحب شمس الدين التمش سلطان الهند المملوكي بشاه خوارزم في بلاده . ففضلاً عما يعلمه من أطماع أبيه في السابق بالاستيلاء على أملاك الغوريين ، فقد كان يدرك تمام الإدراك أن المغول لن يقعدوا عن طلبه أبداً مما يعرض الهند لأخطارهم المعروفة .

ولئن استطاع جلال الدين أن يغادر أرض الهند ويحتاج بعض ولايات إيران ويخضع الخليفة العباسي لسلطانه ويلزم الاسماعيليين قلاعهم إلا أن المغول ما زالوا به حتى هزموه آخر الأمر وقتلوه .

وما أورده الجويني عن جلال الدين وسلاطين خوارزم كان هو المصدر الذي استمد منه النسوي مادة كتابه في تاريخه المعروف بسيرة جلال الدين منكوبرتي . ويختتم الجويني هذا الجزء الثاني من كتابه بذكر أمراء المغول الذين حكموا في خراسان وأولهم جنتمور ومنهم أرغون وهو الذي ولي مؤرخنا هذا شئون ديوانه .

ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن سر قوتي بيكي وكانت أميرة نابهة على كفاية ممتازة وإلمام مكين بالياسا المغولية . وقد استطاعت هذه السيدة أن تحسم النزاع الذي شب بين أمراء المغول إثر وفاة كيوك خان وتحمل القوم على البيعة لابنها منكوبرتي . وقد أقامت هذه السيدة مدرسة كبيرة ببخارى ، أرادت بها أن تعبر عن عطفها على المسلمين برغم وثنياتها .

وفرد المؤلف من بعد ذلك باباً طويلاً في ذكر جلوس هذا الخان المغولي يصف لنا فيه احتفال القوم بتنصيبه أميراً عليهم ، كما يشير كذلك إلى حرص هذا الأمير على التمسك بتقاليد المغول وآدابهم وتوحيه

العدل في معاملة رعاياه حتى رفع عنهم الكثير من أموال الخراج . وكان من حسن صنيعه مع المسلمين أن عهد بحكومة تركستان وبلاد ما وراء النهر إلى مسعود بك بن محمود يلواج^١ ، فأشاع الازدهار فيها من جديد .

ومما يذكر عن هذا الخان المغولي كذلك أنه كان يوقر شيوخ المسلمين توقيراً شديداً ويصلهم بالمسال والهدايا .

وينتقل الجويني من بعد ذلك إلى تفصيل أخبار اجتياح هولاء منكو لإيران . فإذ إن تم لمنكو إقرار الأمور في بلاده حتى وجه أخاه هذا في السنة الثانية من حكمه على رأس جيش قوى وبخطة محكمة عبر توران إلى إيران على أن يبدأ بالاستيلاء على قلاع الاسماعيليه وحصونهم وتخريبها واستئصال شأفة أصحابها جميعاً ثم يسير من بعد ذلك إلى العراق لإخضاع الخليفة العباسي بها والاستحواذ على بلاده .

هذا وكان هؤلاء الاسماعيليه قد سارعوا يخطبون ود جنكيز خان حين قدم بلاد ما وراء النهر ثم انقلبوا من بعد ذلك يؤيدون الناس على المغول ، وإن استعروا في الوقت نفسه ينكلون بأهل السنة ما وسعهم ذلك .

وأعظم قلاع الاسماعيليه كانت الموت التي استولى عليها زعيمهم حسن الصباح عام ٤٨٣ هـ فصارت منذ ذلك الوقت مقر زعامتهم . واستسلم ركن الدين خورشاه زعيم الاسماعيليه لهولاكو آخر شوال من عام ٦٥٤ هـ بعد أن خربت أغلب قلاعهم وأراضيهم .

ومن قلعة الموت خرج نصير الدين الطوسي فقصده وبعض رفاقه معسكر الغازي المغولي الذي رحب بهم بعد أن أيقن من صدق نواياهم نحوه . وبلغ من اعتزاز هولاء هولاء بالطوسي أن أقام له مرصده المشهور بمراغه .

وكان لسقوط حصون الاسماعيليه واندحارهم

صدى سعيداً كبيراً بين المسلمين لما كانوا يشيعونه بينهم من الرعب والفرع وينشرونه من المفسد .

وأذن هولاء لمؤرخنا الجويني - وكان في صحبته موفداً من قبل الأمير أرغون - بالدخول إلى مكتبة الاسماعيليه في الموت ، وأن يحتفظ لنفسه بقدر مما بها من كتب العقيدة وآلات النجوم والرصد . وكان مما وجدته بتلك الخزانة كتاب « سر كذشت سيدنا » وهو في سيرة الصباح ودعوته .

ويتناول الجويني في الفصل التالي لذلك مذاهب الباطنية الاسماعيليه وأحوالهم ، فيذكر أنه بعد أيام الخلفاء الراشدين ظهرت جماعة تتظاهر بالإسلام ولكنها تنعصب للمجوسية في الباطن فأخذوا ينشرون الضلال في الناس بأن لظاهر الشريعة باطناً يخفي على أكثر الناس ، حتى ظهر الكيسانية أتباع محمد بن الحنفية فانضموا إليهم . ويسوق الكلام من بعد ذلك عن أتباع إسماعيل بن جعفر الصادق ويعالج فكرة المهدي والستر والنص الخاص بالإمام عندهم ، كما يذكر القرامطة ويتحدث عن قيام الدعوة الفاطمية بالمغرب وعن خلفائهم ودولتهم بمصر حتى قضاء صلاح الدين الأيوبي عليهم .

ويوقف الجويني من بعد ذلك باباً بأكمله على ذكر الصباح ودعوة الاسماعيليه النزارية ، ويعتمد في ذلك على كتابه « سر كذشت سيدنا » الذي عثر عليه في الموت . فيذكر لنا رحلة الصباح إلى مصر - وكانت هرباً من وجه نظام الملك الوزير السلجوقي القوي عدو الباطنية وفاضح أباطيلهم - ثم عودته إلى كوهستان بخراسان داعياً للنزارية واتخاذها لآلوت مقرأ له بعد استيلائه على كثير من القلاع والحصون هناك . وبعد أن يعرض الجويني علينا تعاليم الصباح ، يندد بنشاط فدائيتهم وجنوحهم إلى اغتيال مخالفينهم ، وكان أول ضحاياهم هو الوزير القدير نظام الملك . ثم يسرد علينا

من بعد ذلك أخبار خلفاء الصباح في الموت إلى أن
خرب هولاءكو ديارهم كلها . ويحتم حديثه عن هؤلاء
الباطنية بشكر الله على خلاص المسلمين منهم . « فن كان
على وفاق معهم من الناس أيامهم إنما كان ذلك بدافع
الخوف منهم ، أما من كان يعاديهم فقد كان يعيش
في رعب دائم منهم وخوف مقيم » .

وفي آخر هذا الجزء الثالث رسالة صغيرة تنسب
لنصير الدين الطوسي في واقعة فتح بغداد . ويذكر
العلامة القزويني أنه وجدها ضمن ثلاث مخطوطات من
بن اثني عشر مخطوطاً رجع إليها في تحقيق هذا
الكتاب .

وليس بين أيدينا ما يدل على إلحاق الجويني بنفسه
هذه الرسالة بكتابه . وما يثير تساؤلنا هنا فقط هو
سكوته عن تسجيل أخبار هذه الواقعة بكتابه وقد كان
يصاحب هولاءكو فيها . وقد كان الجويني على كل
حال من بين غير الراضين عن مقتل الخليفة العباسي ،
مخلاف الطوسي الشيعي عدو الخليفة وريبب الاسماعيلية
في السابق . والمعروف كذلك أن الجويني كان يقرب
إليه أجباء الخليفة ومنهم الشاعر الكبير سعدى الشيرازي
الذي رثى المستعصم بقصيدتين بليغتين إحداهما بالعربية
والأخرى بالفارسية . كما بذل كذلك جهوداً كبيرة
في تعمير بغداد وراحة أهلها حين ولي حكومتها .

النموذج الأول :

بيان القواعد التي رسمها جنكيز بعد
خروجه للغزو ، والياسا التي أمر بوضعها .

لما كان الحق تعالى قد ميز جنكيز خان على سائر
أقرانه في العقل والحكمة ، وحباه دون ملوك الدنيا
باليقظة والسلطان حتى كان هو نفسه يعرف بالبدية
عادات جبابرة الأكاسرة المشهورين ورسوم الفراعنة
والقيصرية وتقاليدهم المدونة دون ما حاجة به إلى مطالعة
أخبارهم وتقصى آثارهم ، فكان تدبيره لشئون البلاد

التي فتحها ، وخططه في القضاء على أعدائه ، ورفع
درجات أتباعه - كانت هذه كلها - من وحى خاطره
وتصنيف ضميره . ولو كان قد قدر للإسكندر
(المقدوني) أن يعيش في عصره - وهو الولوع بكشف
الأسرار وحل المشكلات - لتعلم منه ما كان يصطنعه
من ضروب الحيل وليدة الذكاء في مواجهة الأمور ،
ولوقف عنده كذلك على أسرار فتح الحصون ،
ولإخضاعها . وأعظم دليل على ذلك أنه مع ما كان عليه
خصومه من الكثرة في العدد وما تهيأ لأعدائه من القوة
والشوكة حتى كان كل واحد منهم بمفرده فغفور
وقته وكسرى زمانه ، فقد خرج إليهم مع قلة عدده
وانعدام عدده ففتح كافة الأصقاع من الشرق إلى
الغرب وسخرها له . أما كل من كان يتصدى لقتاله ،
فإنه ، جرياً على حكم الياسا وقواعدها التي كان
يلتزمها ، كان يقضى القضاء التام عليه وعلى كل أتباعه
وأولاده وأشياعه وأجناده ويشيع الخراب الشامل في
كل بلاده .

والحديث المنقول عن الأخبار الربانية (القدسية)
« أولئك هم فرسانى بهم أنتقم من عصائى » ، يقصد به ،
بلا أدنى شك أو شبهة ، جماعة فرسان جنكيز خان
هولاء وقومه .

ولقد كانت الدنيا حتى ذلك الوقت تموج بالخلق ،
وكان الملوك والأشراف في كافة النواحي قد بلغوا
أقصى درجات غرور الكبرياء وبطر العظمة والخيلاء .
على أن الله تعالى (وهو القائل في حق نفسه) « العظمة
لإزارى والكبرياء ردائى » بحكم سابق وعده ، جعل
لجنكيز قوة البطش وغلبة التسلط « إن بطش ربك
لشديد » . وحين عمدت أكثر الأمصار وأغلب الأقطار
إلى حربه ورفضت الاستسلام له ، إذ أبطرها ما كان
لها من الثروة والعز والرفعة حتى أعرضت عن الدخول
في طاعته - خاصة بلاد الإسلام من حدود بلاد الترك
حتى أقصى الشام - فإن كل ملك أو صاحب ناحية

يراه من كلام المتوكلين ، فقد قال الله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » . فلا جرم إذن أن تحقق له كل ما كان يضمره ويبتغيه .

ولما كان جنكيز غير معتق لأي دين أو تابع لأي ملة ، فقد كان لذلك بعيداً عن التعصب ، لا يرجح ملة على أخرى أو يفضلها على غيرها . وكان يحيط علماء كل طائفة وزهادها بالإعزاز والتبجيل ويرى في ذلك الوسيلة إلى الله . فكما كان ينظر إلى المسلمين بالتوقير ، فكذلك كان يفعل مع النصارى وعبدة الأوثان . واختار أولاده وأحفاده من بعده من العقائد كل على هواه ، فمنهم من دخل في الإسلام ومنهم من اعتنق النصرانية ، ومنهم من اختار عبادة الأوثان ، ومنهم من بقى على معتقد آبائه وأجداده القديم لا يميل إلى غيرها أبداً . وهذه الطائفة الأخيرة هي أقلهم . وبدخلهم في المذاهب الأخرى بعد أكثرهم عن إظهار روح التعصب مع غيرهم .

في هذا الشأن تجد الياسا الجنكيزية وفيها جميع الطوائف سواء لا تعدل عن ذلك إلى الإقرار بقيام الفروق بينها أبداً .

وما تحويه الياسا من العادات الحميدة كذلك ، إنكار الألقاب الكثيرة هي ومظاهر التكلف التي كان يجري الملوك عليها . فهم يخلصون كل من يجلس على العرش منهم بلقب خان أو قاآن ولا يزدون على ذلك . أما أولاده وإخوته الآخرون فيدعون كل واحد منهم بالاسم الذي يعرف به منذ مولده ، يلتزمون ذلك في حضوره وفي غيابه على السواء . ويذكرون أسماءهم في المنشورات المكتوبة مجردة كذلك ، إذ لا فرق عندهم في ذلك بين سلطان وعامى . وهم يقصدون في تحريراتهم إلى الموضوع الذي يهدفون إلى الكتابة فيه رأساً لا يلتفتون في ذلك إلى الألقاب وعبارات التفضيم والتعظيم .

أو أمين مدينة كان يقف في وجهه كان يقضى القضاء التام على أهله وأتباعه القريب منهم والغريب حتى لم يكن يبقى من كل ألف شخص على أكثر من مائة ، دون مبالغة . ومصادق هذه الدعوى يؤيده ما صار إليه حال المدن التي كانت قائمة إذ ذاك .

وعلى وفق رأى جنكيز ومقتضى مراده فقد وضع قانون لكل عمل ، ودستور لكل مصلحة ، وحدود لكل جرم . ولما لم يكن لأقوام التار خط فقد أمر جنكيز أن يقوم الأويغور بتعليم أبناء المغول الكتابة . وهؤلاء الأيغور هم الذين اضطلعوا كذلك بتسجيل هذه القوانين (الياسا) والأحكام في الطواير ، وهم يعرفونها باسم كتاب الياسا الجامع . وكان أبناء الملوك يحتفظون في خزائنهم بنسخة منها . فحين يجلس ملك جديد منهم على العرش ، أو يقوم الملك بتعبئة جيشه للحرب ، أو يجتمع أبناء الملك للنظر في مصلحة الدولة وتدابير شئونها ، فإنهم يحضرون هذه الطواير ويبنون قراراتهم في ذلك بنص ما ورد فيها ، ويعبئون جيوشهم ويهاجمون المدن والبلدان ويخربونها على الرسوم التي تنص عليها .

وقد عمد جنكيز أول عهده ، حين انطوت قبائل المغول تحت لوائه ، إلى القضاء على الرسوم الذميمة التي كانت تشيع في تلك الطوائف وإحلال العادات الحميدة التي ترتضيها العقول محلها . ومن هذه الأحكام كثير يوافق الشريعة (السمحاء) .

ولم يكن جنكيز في إنذاراته ، التي يبعث بها إلى مختلف الأطراف يدعو فيها أصحابها إلى الاستسلام ، يجري على رسم الجبابة حين كانوا يتهددون غيرهم بكثرة عددهم وقوة شوكتهم وما عندهم من العدة والعتاد ، أو يعمدون إلى تخويف عدوهم والتشديد عليه وإنما كان كل ما يفعله في ذلك هو دعوته القبائل للانقياد له سلباً ، فإن لم يفعلوا « فإن ما نقدر عليه هو مقدور الله القديم وبعلمه » . ومن يتدبر في هذا المعنى

ويهتم المغول اهتماماً فائقاً برياضة الصيد . وبموجب قول القائل إن « صيد الوحوش يناسب أمير الجيوش » كان من واجبات أرباب السلاح وأصحاب الكفاح عندهم تدريب الجند على ممارسة هذه الرياضة تدريباً دقيقاً ، حتى إذا ما خرج الصيادون منهم للصيد كانوا عارفين بطرائقه ونظام صفوفهم فيه بحسب عددهم من حيث القلة أو الكثرة . وهم حين يعزمون على الخروج إليه يسبقهم نفر منهم للاستطلاع .

وعلى الجند أوقات السلم أن يحرصوا دوماً على ممارسة تلك الرياضة ، وعلى قادتهم أن يحرصوهم عليها والغاية من ذلك ليست الصيد لذاته ، وإنما هي أن يمارس الجند الرياضة ويدوموا التدريب على الرمي بالسهم ويعتادوا تحمل المشاق .

وحيث يعزم الخان على الخروج إلى الصيد - وأوان ذلك عادة هو أول دخول فصل الشتاء - تصدر الأوامر للجند المرابط عند مضارب الخان بالإعداد لذلك . فينطلق بضع عشرات منهم يعدوا مواضع الصيد ويجهزوا آلاته من أسلحة وغيرها ، ويعينوا مواضع الصفوف سواء في القلب أو في الميمنة والميسرة . وهم يسلمون زمام القيادة إلى الأمراء الكبار الذين يخرجون معهم ، وفي صحبتهم زوجاتهم وسرايهم وما معهم يحتاجونه من المأكل والشراب .

وهم يضربون حلقة الصيد لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة ، ويطاردون الصيد داخلها في تودة وهودة حريصين كل الحرص على ألا يفلت منه شيئاً . وإذا وقع شيء من ذلك ، ولو بالمصادفة ، تحروا الدقة الشديدة لمعرفة السبب والكشف عن علته . وهناك يأمر الأمراء بضرب الخطئ ألف عصاة أو مائة أو عشرة ، بل إنهم كثيراً ما يأمرسون بقتله ، وكذلك يفعلون إذا ما لاحظوا اضطراباً في بعض الصفوف - ويعرف الواحد منها باسم « نركه » - أو تقدم بعض

وحيث تضيق الحلقة من بعد ذلك حتى تبلغ فرسخين أو ثلاثة فراسخ في محيطها ، يصلون عند ذلك بين أقسامها بالخيال وينشرون عليها اللباد ويصطف حولها الجند كنفاً إلى كتف ، وقد توسطها صفوف الوحوش تزجر وأنواع السباع تزار ، وكأنه وعد الحق في قوله تعالى « وإذا الوحوش حشرت » ، فترى الأسود وقد اثقلت مع حمر الوحش ، والضباع وقد أنست إلى أبناء آوى والذئب وقد صادقت الأرناب . حتى إذا ما استحكمت حلقاتها فلم يعد لأوابد الوحوش مجال تسرح فيه ، انطلق الخان يطاردها وسط الحلقة في نفر من خاصته ، فيرمونها بسهامهم مقدار ساعة صائدين . فإذا ما ملوا ذلك صعدوا إلى مرتفع بالحلقة فزلوا فيه ، فيشاهدون منه أبناء الخان وهم يمارسون الصيد بدورهم . ويأتي من بعدهم - على الترتيب - صغار أبناء الخان ثم الأمراء ثم عامة الناس . ويستمر الحال عدة أيام على هذا المنوال ، حتى إذا لم يبق من الصيد شيء اللهم إلا حيوان واحد هنا واثان هناك ما بين مجزوح وهزيل متقدم في السن أو وليد ، تقدم القوم إلى الخان ضارعين يدعون له ويتشفعون عنده للإبقاء على ما بقي من الحيوان ، ثم يسوقونها من بعد ذلك إلى أقرب مكان يتوفر فيه الماء والعلف . ويحصون من بعد ذلك ما صادوه ، فإذا تعذر عليهم حصر أنواعها وإحكام عددها لكثرتها اقتصرروا منها على السباع وحمر الوحش فأحصوها .

ذكر استخلاص بخارى

هى فى البلاد الشرقية (أى من أراضى الدولة الإسلامية) قبة الإسلام ، وبين تلك النواحي بمثابة مدينة السلام . سوادها يضئ ببياض نور العلماء والفقهاء وأطرافها تزدان بطرف المعالى . وهى منذ القدم مجمع نحاريير كل علماء الأديان فى كل قرن وفق دين كل عصر .

اسمها مشتق من لفظة « بخار » وهى بلغة المغان (رجال الزرادشتية) مجمع العلم . وهذا اللفظ فى لغة الوثنيين من الأويغور وختاى قريب من هذا المعنى كذلك ، إذ يعرفون به معابدهم التى تضم أوثانهم . وكانت هذه المدينة تعرف قديماً باسم « جمكنت » .

وحين فرغ جنكيز من تهيئة جيشه وتجهيزه سار حتى بلغ بلاد السلطان (علاء الدين محمد شاه خوارزم) ومن ثم سار أبناءه الكبار وبصحبتهم صغار الأمراء ومعهم الجند الكثيف ووجههم إلى كل صوب ، وبدأ هو نفسه بالزحف إلى بخارى وفى رفقته من أبنائه الكبار ابنه تولى .

(ثم يورد المؤلف من بعد ذلك تفصيل المعارك التى خاضها جنكيز وهو فى طريقه إلى تلك المدينة) .

وفى أوائل المحرم من سنة سبع وعشرين وستائة بلغ « جنكيزخان » تلك المدينة وأمر بالنزول بباب حصنها ، وأقام معسكره فى السهل الواقع أمام ذلك الحصن .

وما لبث جنده أن أخذ يتوافد عليه ، جموعه تزيد على جموع النمل والجراد حتى لا يدركه حصر أو محصيه عد . وكانت أفواجه تتابع متدفقة وكأنها أمواج البحر المحيط ، ورابطت جميعها حول المدينة . وكان بداخل الحصن عشرون ألفاً من المدافعين عليهم كوك خان . وهو مغولى الأصل ، على ما يقال ،

كان قد هرب من خدمة جنكيز والتحق بخدمة السلطان ، والعهد على الراوى ، وكان هذا سبباً فى إعلاء شأنه (أى بخوارزم) .

وبرز من حصن المدينة عند الغروب من الأمراء : خميد بور وسونج خان وكشلى خان ومعهم أغلب جندهم . فما إن بلغوا فى انطلاقهم هذه شاطئ جيحون حتى سقط عليهم الحرس مع رجال الطليعة من المغول فأفنؤهم عن آخرهم .

إذا لم يكن يغنى الفرار من الردى

على حالة فالصبر أولى وأحزم

وعند غروب اليوم التالى ، وقد انعكست أشعة الشمس على الوادى فبدأ وكأنه طست ملىء بالدماء ، فتح باب الحصن وأغلق باب المقاومة ، وقدم أئمة بخارى وأعيانها على جنكيز خان .

ونفذ جنكيز من الحصن إلى المدينة فدخلها وقصد مسجدها الجامع . وفيه توقف عند المقصورة ، وقد ترجل ابنه تولى . ثم قصد المنبر ، وقد ظن أن البناء هو قصر السلطان ، حتى أوضح له الناس بأنه هو بيت الرحمن .

هنالك نزل جنكيز عن فرسه وارتقى درجتين أو ثلاث من درج المنبر ليأمر رجاله عند ذلك بأن يطعموا خيولهم إذ لا يوجد بالوادى علف لهم . فانطلقوا عندئذ إلى أنبار المدينة فأخرجوا ما بها من الغلال ، وحملوا صناديق الكتاب الكريم إلى صحن المسجد ، فانتزعوا ما بها من المصاحف ومزقوها وداسوها بأقدامهم ، واتخذوا من الصناديق نفسها مذاود لخيولهم . وطفقوا من بعد ذلك يديرون كوؤوس الشراب فيما بينهم وقد جلبوا القيان من المدينة ليرفهن عنهم بالرقص والغناء ، ثم انطلقوا بدورهم يرددون أناشيدهم القومية بعد أن عهدوا إلى الشيوخ والأعيان والعلماء بدوابهم وألزمهم بتعهدها فامثلوا لأوامرهم صاغرين .

ولم يمض القوم في المكان إلا ساعات معدودات غادره جنكيز من بعدها مع خاصته وتبعه في ذلك رجاله . وفيه اختلطت أوراق المصاحف بالقاذورات بعد أن وطأتها الأقدام . وهال الأمر الإمام جلال الدين ابن الحسن الرندي مقدم سادات ما وراء النهر وكان ممن يشار إليه بالبنان في الزهد والورع . وحين التفت إلى الإمام العالم ركن الدين إمام زاده ، وكان من أفاضل العلماء ، ندى الله ثراهما ، فقال له « ما هذا الذي أرى يا مولانا ، ترى أنا في يقظة أم في منام يا رباه » أشار إليه إمام زاده بالتزام الصمت تلقاء غضب الله الذي حل بهم حيث لا يجدى الكلام نفعاً .

وحين خرج جنكيز إلى ظاهر المدينة ذهب إلى مصلى العيد وصعد المنبر حيث السكان كانوا قد جمعوا له . وسأل عن أعيانهم فبرز له من بينهم مائتان وثمانون منهم مائة وتسعون من أهل المدينة نفسها ، أما التسعون الباقون فكانوا من غرباء التجار الوافدين إليها .

هنالك التفت جنكيز إليهم وأخذ يندد تنديداً شديداً بالسلطان محمد (شاه خوارزم) وما ارتكبه من الغدر ليقول لهم من بعد ذلك : « اعلموا أنكم قد اقترفتُم كبائر الإثم الكثير وأن وزرها إنما يقع على أمرائكم ، وإذا سألتوني عن أكون أنا الذي أخطبكم فاعلموا أني سوط الله الذي بعث بي إليكم لأنزل بكم عذابه » .

وحين فرغ من كلامه على هذا النمط نصح القوم بأن يخرجوا إليه ما يكونوا قد أخفوه من الأموال في باطن الأرض ، « أما ما عداها مما هو ظاهر فأمره معلوم » .

ثم سأل من بعد ذلك عن أمنائهم والقبائل على شئون حكومتهم من معتمديهم ، فأفضى إليه كل واحد منهم بمهام منصبه . ومن ثم خصص لهم حرساً من المغول والترك حتى لا يتعرض لهم بالسوء أحد من الجند .

وأخذوا من بعد ذلك يجمعون الأموال من المعتمدين ، يقبلون منهم ما يقدمونه لا يستزيدوهم أو يحملوهم ما لا يطيقون . وكان الحراس يأتون كذلك كل صباح عند طلوع الشمس بجماعة الأعيان إلى مقام خان العالم .

وأمر جنكيز من بعد ذلك بإخراج جند السلطان من المدينة وقلعتها الداخلية . وكان هذا الأمر مما يتعذر على الأهليين تنفيذه .

هذا وكان هؤلاء الجند بدورهم قد عمدوا في سبيل الدفاع عن أنفسهم إلى استخدام كل ما يستطيعونه من أساليب القتال والغارات الليلية . حتى أمر جنكيز بإشعال النار في كل أبنية المدينة وكان أغلبها من الخشب . فلم يمض بذلك إلا أيام قليلة حتى احترقت كلها إلا المسجد الجامع وبعض القصور التي بنيت بالطوب .

وسيق سكان بخارى أنفسهم قهراً لاقتحام القلعة . واشتعل تنور الحرب من الجانبين . فن خرج القلعة كانت الحنايق تطلق ، وعديد السهام والنشاب والحجارة تتطاير نحو أهدافها . أما داخلها فقد كان يخرج منه العرادت وقذائف قوارير النفط يزيد اشتعالها في الخارج ما تقع عليه من علف ووقود ويتطاير من لهبها شرر ملاً الجو .

وظل القتال يجري على هذا النحو لعدة أيام كان رجال القلعة يخرجون فيها كذلك في حملات متتابعة لنزال عدوهم . ونخص بالذكر منهم كوك خان ، وكان في شجاعة الأسود . وقد قاد حملات كثيرة قتل فيها عديداً من جند العدو وأرغم كثيرين آخرين منهم على الفرار ، حتى غلب على أمره نهاية الشوط . وقد شهد الخلق والخلائق لهؤلاء جميعاً بالبطولة والإقدام . وكان الخندق المحيط بالقلعة قد امتلأ بجثث الرجال ورمم الدواب .

ودفع المغول برجال الطليعة ومعهم البخاريون إلى اقتحام المتاريس آخر الأمر ، ثم أشعلوا النيران في القلعة نفسها ، حتى استسلم لهم من كان بها من الأمراء والقادة والأعيان وهم صفوة أهل الزمان وخيرة رجال السلطان فأبيدوا عن بكرة أبيهم :

الدهر يلعب بالورى لعب الصوالج بالكره أو لعب ريج عاصف فاعلم بكف من ذره الدهر قناص وما آل إنسان إلا قنبره ولم يفلت من القتل كذلك أحد من رماة القنقلين بأعلى السور ، ومعهم أكثر من ثلاثين ألف من رجال الحامية أوردوا جميعاً مورد الرذى . كما حمل المغول معهم صغار الأولاد وأولاد الكبار ونساء على جمال باهر وقد مليح .

وبعد أن تم للغزاة تطهير المدينة والقلعة من الأبطال وهدم الأسوار والمتاريس حتى سووها بالأرض ، ساقوا أمامهم كل أهل المدينة ، رجالاً ونساء ، إلى صحراء مصلى العيد ، وقد أعفوه من القتل واختاروا

الشبان والكهول الأشداء من بينهم فضموهم إلى صفوف الجند الذى عيئ لفتح سمرقند ودبوسيه ، وسيروهم معهم إلى هناك .

وتفرق سكان بخارى من بعد ذلك فى الأرض ، بسبب ما نزل بهم من الخراب ، تفرق بنات النعش فى السماء ، وبهذا صارت هذه الحاضرة خراباً فى خراب . وقدم أحد البخاريين إلى خراسان ، وكان قد استطاع الهرب من هناك على أثر هذه الواقعة ، فحين سأله عما نزل بتلك المدينة أجابهم (بهذا البيت الفارسى المشهور) :

قدموا فخرّبوا وأحرقوا

وقتلوا ونهبوا ثم رحلوا

وقد اتفق الأكابر بعد أن سمعوا منه ذلك على أن الفارسية لا تعرف ما هو دون هذا القول فى إيجازه مع بلاغته . وكل ما هو مسطور فى هذا السفر لإجماله وخلاصته فى هذا الكلم القليل الذى أفصح به هذا البخارى عن حال بلده .